

الجزائر في عيون الرحالة الجزائريين خلال القرن التاسع عشر الرحالة المشرقي أنموذجا

د. عبدالحق شرف *

مقدمة:

تعدّ الرحلة كتابة ملتبسة، وهي سفر واقعي أو متخيل يسمح بالسفر عبر المكان، والأجناس والأنساق والكلمات، حوارا وتحليلا وتفسيرا. ولا شك أن هذه الوظيفة التي يمتلكها هذا المكون المركزي-مكون السفر- تقتضي وجوده وانتشاره عبر مراحل الرحلة ذهابا وإيابا، مما يسمح باستيعاب مختلف المكونات الأخرى وإدماجها في سياق البنية المهيمنة بنية السفر والارتحال.

وعلى هذا المنوال نسجل واحدة من الرحلات المهمة لرحالة جزائري في القرن التاسع عشر، دوّن لنا مشاهداته عن الجزائر وأقاليمها، وهو العربي المشرقي المعسكري دفين مدينة فاس، في رحلته الموسومة بـ"ذخيرة الأواخر والأول" والتي يسميها بعض المؤرخين بالرحلة الجزائرية.

وقد نوّه بأهمية هذه الرحلة وقيمتها التاريخية والأدبية المستعرب الفرنسي هنري بيريز "*Henri péres*". ورحلة المشرقي هذه لا تزال مخطوطة، ونظرا لأهميتها فقد ارتأينا أن نقدمها ونعرف بها.

* أستاذ محاضر بقسم العلوم الإنسانية، جامعة ابن خلدون، تيارت.

أنزل المشرفي رحلته على عادة المؤرخين القدامى في مقدمة، ستة أبواب وخاتمة. وما يهمنا من الرحلة الباب الخامس منها، الذي ذكر فيه معلومات مهمة جدا عن الجزائر في الفترة الأخيرة من الحكم التركي وهي الفترة التي عايشها وعانينا عن كتب، كما أفرد حيزا هاما لتاريخ الجزائر وأحوالها إبان الفترة الاستعمارية. ونقل إلينا بعض مشاهداته في وهران أيام دراسته بها عن تعسف الأتراك وظلمهم وجورهم، وفي المقابل نوه بحبهم للعلماء. ثم تكلم عن مدينة الجزائر وتاريخ بنائها، وعن وليها عبد الرحمن الثعالبي، وتلميذه أحمد بن عبد الله، وعرج إلى ذكر دخول الفرنسيين إليها.

كما نجد في السياق ذاته، ينوه ببعض علماء الجزائر، ويقدم تراجم وافية لبعضهم، وينهي هذا القسم بخاتمة مطوّلة تحدث فيها عن أقاليم المغرب الأوسط البحرية والجبلية والصحراوية.

التعريف بصاحب الرحلة:

هو العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي¹، وقد وجد التباس كبير حول تاريخ ولادته، شأنه في ذلك شأن جل أعلام هاته الفترة، وبالتالي يصعب تحديده وضبطه بدقة. وقد وجد في نهاية كتابه "الحسام"، أنه بلغ سن الخمسين عند تأليفه، وبالا اعتماد على ما جاء في "إتحاف المطالع" من أنه توفي سنة 1313هـ/1895م عن عمر يناهز التسعين²، فإننا نستطيع أن نضع احتمال ولادته مع نهاية سنة 1804 وبداية سنة 1805م، ومن المؤكد أن ولادته كانت

بقريّة الكرط ضواحي مدينة معسكر³، ولم يشذ عن ذلك سوى صاحب "إتحاف المطالع"، الذي أورد أنه ولد وتعلم بتلمسان⁴.

وينتسب العربي المشرفي إلى أسرة المشارف⁵ ذات الأصول الوثيقة بالعرهوبيين أبناء مشرف (بكسر الراء وفتحها) بن عبد الرحمن بن مسعود. وقد تلقى تعليمه الأولي ببيت عائلته، فوالده عبد القادر بن علي المشرفي الذي اشتهر بين جماعته بغزارة العلم الشرعي وسمعته الطيبة، فضلا عن تدينه وعدله، جعله قبلة لاحتكام الخصوم إليه.

وعلى غرار أبناء بلدته، التحق المشرفي بكتّاب بلدته الكرط لحفظ القرآن. أما شيوخه الذين تتلمذ لهم في هذه المرحلة فهم⁶:

- سيدي عبد الله بن ديدة، وقد قرأ عليه أحكام القراءة في الرسم والضبط، والدرر اللوامع في مقرئ الإمام نافع، وسيدي محمد بن عبد الرحمن، والعربي بوروبة، ومحمد بن عدلة.

وبعد أن تلقى المشرفي تعليمه الأولي بمسقط رأسه الكرط، انتقل إلى مدينة معسكر ليتم مرحلة الجمع والتحصيل.

وفي هذه المدينة، تلقى تعليمًا على مستوى عال، لتتلمذه على ثلة من شيوخها الأجلاء، ذكرهم في مجموعة من كتاباته وعرف بهم وبما أخذ عنهم، وهم كالتالي: محمد بن عبد الله سقاط المشرفي، الطيب بن عبد الرحمن، أحمد بن التهامي، مصطفى بن أحمد التهامي، محمد بوسيف العامري التزاري، بن عب بن المصطفى، الطاهر المشرفي، عبد القادر بن مصطفى بن الأحمر، السنوسي بن عبد

وبعد أن أتم مسيرته الدراسية بمدينة معسكر، انتقل المشرفي إلى مدينة مستغانم ليتتلمذ على مشايخها وعلمائها، يستشف ذلك من قوله: "كما قرأنا على غيرهم من علماء مستغانم"⁷، حيث تتلمذ لجملة من الشيوخ وهم: محمد بن صابر، محمد بن عامر البرجي، محمد بن عاشر، عبد القادر بن القندوز، خليل الفرندي.

ثم انتقل المشرفي بعد ذلك إلى تلمسان، بغية الاستزادة والتتلمذ على علمائها، وقد أشار عرضا إلى مقامه بها، وقراءته على ידי الشيخ الفقيه الحاج الداودي التلمساني، والشيخ محمد بن سعد التلمساني، وسيدي محمد الفخار.

وفي نهاية المطاف، انتقل المشرفي إلى وهران سنة 1240هـ/ ماي 1824م⁸، ليواصل تعليمه بها على شيوخه الذين تتلمذ لهم بادئ الأمر في معسكر.

وقد كان للاستعمار الفرنسي الأثر السيء على حياة المشرفي العلمية، وهو ما ترك في نفسه تدمرا كبيرا. ذلك أنه وبعد الاحتلال قفل راجعا إلى معسكر، بعد أن أمضى ست سنوات من التحصيل بوهران، ليتولى تدريس الصبيان، حيث عبّر عن هذه المرحلة بقوله: "ففاجأنا خروج الإفرنس دمره الله للشجر الجزائري، فلم يتم لنا المراد في قراءة التفسير ومتون الصحاح، فرجعت لغريس ظافرا بالنعويات والفتقيات والحمد لله، وانتصبت في حياة والدي للتدريس وقرت بي عينه"⁹.

وبعد رجوعه لمعسكر، والتخلي الاضطرابي عن مزاولة الدروس، لم يضيق المشرفي ذرعا بذلك، بل نجده ينطلق في رحلة جديدة، بحثا عن العلم

والتحصيل، لينزل هذه المرة ضيفا على منطقة مجاجة سنة 1249هـ/1833م، لكن خيبة أمله كانت كبيرة لما وجد بها سوى عالمين اثنين.

وهكذا تنتهي المرحلة الأولى من حياة المشرفي، التي عاش خلالها متنقلا بين معسكر ومستغانم وتلمسان ووهران، إلى غاية انهزام الأمير عبد القادر في معركة عين طاقين سنة 1843م، حيث لم يبق بها طويلا، ويشد الرحال نحو المغرب في رحلة متعبة سنة 1844.

وهناك بالمغرب، عاش العربي المشرفي حياة صعبة للغاية، وعرف تهميشا كبيرا وجفاء لا يطاق من لدن علماء عصره.

ورغم ما عرف عنه من كثرة التأليف والارتحال، فإنه لم يستطع أن يجد لنفسه موطئ قدم في أوساط النخبة العالمة هناك، وهو ما عبّر عنه بنفسه قائلا: "وكل هذا، أنني معدود من حزب الغرباء، وإن كنت عندهم من جملة الأدباء، وفي الطبقة الثانية من طبقات المدرسين، ومحروم من أحباس المحبين، وهذا شأن من لفظته الأقدار من أوطانه، وانقلبت محاسني مساوئا، وأصدقائي أعاديا"¹⁰.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت له علاقات طيبة مع بعض علماء عصره بحاضرة فاس، ونخص بالذكر علاقته بمحمد الفاطمي بن الحسين الحسيني الصقلي والمهدي بن سودة، والحاج إدريس بن علي القرباوي المالكي السناني، والعباس بن أحمد الأبار.

ترك المشرفي بعد وفاته سنة 1313هـ/1895م¹¹، ثلة من التلاميذ النجباء خلّدوا ذكراه، وقد كان معظمهم من عائلته، وأبرزهم: محمد بن محمد بن مصطفى

المشرفي¹²، علي بن الحاج بن موسى الجزائري (1244 - 1330هـ/ 1829 - 1910م)¹³، عبد القادر بن البشير، أبو العباس السيد أحمد.

التعريف بالرحلة :

الرحلة عبارة عن مؤلف يُعتبر من أهم مدونات العربي المشرفي وأجلها قدرا. أتم تأليفه سنة 1882م. وهو تأليف يجمع بين التاريخ والرحلة يقع في سفرين من 333 ورقة. ويوجد بعضه بخط المؤلف بالخزانة الفاسية¹⁴، بينما توجد النسخة الثانية منه بخزان الكتاني بفاس، ونقلت إلى الخزانة العامة بالرباط¹⁵. وقد أشار إليها ابن سودة قائلا: "وله رحلة إلى بلاد الجزائر تقع أيضا في مجلد"¹⁶، وهي معلومة يبدو أنه استقاها من الشيخ عبد الحي الكتاني الذي أخبر في كتاب دليل الحج والسياحة لأحمد بن محمد الهواري، أن للمشرفي رحلة جزائرية توجد بالجزائر، ويبدو أنها نفسها ذخيرة الأواخر التي اشتهرت في الجزائر بالرحلة الجزائرية أو رحلة الشيخ المشرفي، وهو ما يدل عليه قول الشيخ الحفناوي: "الرحلة المسماة ذخيرة الأواخر والأول تأليف الشيخ أبي محمد سيدي العربي بن علي المشرفي الحسني في حال مروره بالجزائر سنة 1294هـ".

وقد أشار أبو القاسم سعد الله، إلى وجود نسخة أخرى بالمكتبة الوطنية الجزائرية لكن لم نعثر لها على أثر. كما ذكر في السياق ذاته أن هناك نسخة أخرى نقل عنها المستعرب الفرنسي هنري بيريز "*Henri péres*"، لكنه لم يذكر مكان تواجدها ولا ما آلت إليه.¹⁷

وقد ذكر المنوني الخير بالمخطوطات المغربية، أن هناك نسخة أخرى مبتورة الآخر بخزانة خاصة بمراكش، لكن دون أن يحدد اسم الخزانة.¹⁸

مناسبة تأليف الرحلة :

ألف المشرفي هذه الرحلة تلبية لطلب أحد أقاربه وهو تلميذه مصطفى المشرفي، حيث ورد في فاتحة الكتاب ما نصه: "فقد ورد علي مكتوب من لا تسعني مخالفتي، وتتأكد علي بالقرابة إجابته، أن أضع تقييدا قاصرا على سيرة ملوك الأتراك... كما طلب مني ما نعلمه من سيرة ملوك الدولة العلوية، ونسبتهم الشريفة النبوية... فليتيه لما دعاه وأجبت له مسعاه، وإن كنت لست أهلا لذلك، ولا ممن يسلك أوعر المسالك، والله الموفق لرقم الجواب، والهادي إلى أقوم طريق الصواب بمَنِّه وفضله، وبمَنِّه وعدله"¹⁹ "وسميته ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول، وبادرت لامتنال ما به المكتوب ورد، لينجز حر ما وعد، وهذا الباعث على تسطير هذه الرسالة، ولم أماطل في تسويد أوراق العجالة".²⁰

وصنّف العربي المشرفي مؤلفه على عادة المؤرخين القدامى في مقدمة، ستة أبواب وخاتمة. وما يهمنا هنا هو الباب الخامس الذي سرد فيه أطوار المرحلة الممتدة من ظهور الإسلام إلى عصره بشيء من التوسع في ذكر تاريخ الأتراك، ثم الاحتلال الفرنسي للجزائر.

مضامين الرحلة :

توزعت مواضيع الرحلة - الباب الخامس منها- على شكل مواضيع قدّم من خلالها مشاهداته عن الجزائر بعد زيارته لها، الأولى سنة 1849 والثانية سنة 1877 بعد أن كان مقيما بالمغرب أرض المهجر.

وقد أَرخ المشرفي في هذا الباب للفترة الممتدة من ظهور الإسلام إلى عصره، متسائلا عن أسباب تراجع المسلمين رغم ما يتمتع به الدين الإسلامي من غنى وتميز مقارنة مع النصرانية، مستشهدا بتعدد الزوايا والطرق وبأدبيات التصوف، وكتب الطبقات والمناقب²¹، كما أفرد حيزا هاما لتاريخ الجزائر وأحوالها خلال الحكم التركي، وإبان الفترة الاستعمارية، وفيما يلي تحليل لمضامين هذه الرحلة:

1- وصف الحكم التركي بالجزائر :

في حديثه عن الأتراك نجد المشرفي يعرض لأصلهم حين يقول: "دولة الأتراك المضادين لدين الإشراك، فالخبر عنهم وعن شعوبهم، فالحكم أنهم من الأمم القديمة، وهم من نسل ترك بن كומר بن يافث، بن نوح عليه السلام".²² كما نقل إلينا بعض مشاهداته في وهران عنهم، فأشار إلى تعسفهم وظلمهم وجورهم حين قال: "إلا أنهم أبادهم الله من المغرب، لما طغوا وبغوا طغيان الجور والفساد، حيث عَتَوْا عُنُوتًا كبيرا، وعاثوا في الأرض وأفسدوا، ومدّوا أيديهم بنهب الأموال، وسفك الدماء بغير حق، وهتك المحارم، وأحيوا ظلمهم القديم، ورجعوا لوصف آبائهم الذميم"²³، "ما أظنهم إلا من تلك الفئة الطاغية، والشرذمة الباغية"²⁴، وفي المقابل نوه بحبهم للعلماء، خاصة علماء أسرة المشارف.

2- ثورة الدرقاويين والتيجانين على عهد الأتراك:

ثم تكلم صاحب الرحلة بشيء من التفصيل عن ثورة درقاوة، وما آلت إليه البلاد من تردّ في الأوضاع السياسية جرّاءها، مشيرا إلى بعض من سبقه في الكلام عن هذه الثورة مثل الشيخ أبي راس. يقول المشرفي: "ففي حدود العشرين من قرنا

هذا ثار عليهم "دقاوة" أهل النظافة في الدين والنقاوة، فأول ملك منهم هزموه "مصطفى باي" المكنى بـ "أبي كابوس" بمجرد مقابلة سيد هذه الطائفة الآتي ذكره للباي المذكور وهو في شزيمة قليلة، انهزم وترك محاله مبنية في وادي "فرطاسة" في أرض الحشم، ولم يثن عنان فرسه إلى أن دخل وهران".²⁵ وقد تعرض بعد الحديث عن هذه الثورة، إلى انتقام الأتراك منهم، على أنه لم يطل الحديث فيها، حيث يقول: "فبعد تفرق الجموع والمواكب، استقر المطاوع لشيخه بجبل الكواكب، ومدت الأتراك أيديهم في الرعية بالنهب وفعل الدنية، وأهل النسبة عندهم هم الأعداء، ومن جهر بكلمة الشهادة يسفك دمه من غير قبول شفاعة فيه وإلا قد أعضل الداء، فلا فاجر عندهم أعظم ممن يعلن بالهيلة أو يوحد الله رافعا صوته بالبسملة والحمدلة، إذ كل ذاكر عندهم درقاوي يبغضونه من بين غرباوي وشرقاوي، حتى حسموا لهذه الطائفة المادة، ولم تبق في أياالتهم ما تعده منهم العادة"²⁶

لينتقل إلى الكلام عن ثورة التيجاني الذي اعتبره إحدى مظاهر عدم رضا الشعب الجزائري بالحكم التركي، يستشف ذلك من قوله: "وما كان مع ابن السيد أحمد التيجاني دفين فاس المحروسة، فقد ثار عليهم ابنه السيد محمد وجاءهم في نفير من رماة الصحراء، وساعدته قبائل الحشم ومن جاورهم وأعلنوا له بالنصر".²⁷

3- الحديث عن مدينة الجزائر:

ثم تكلم الرحالة المشرفي عن مدينة الجزائر وتاريخ بنائها إذ يقول: "وكانت الجزائر هي أم مدائن الواسطة وقاعدة ملكهم معدة لحرب العدو، وأبراجها من جهة البحر محصنة بطبقات المدافع كأنها شعلة نار، أسفل الطبقات تضرب على وجه البحر، وأعلاها تضرب ما طال من صاري السفينة"²⁸، وتحدث عن وليها عبد الرحمن الثعالبي²⁹ وتلميذه أحمد بن عبد الله³⁰، ثم عرج على ذكر دخول الفرنسيين إليها³¹.

4- مقاومة الأمير عبد القادر:

كما أشار المشرفي من خلال هذه الرحلة إلى مقاومة الأمير عبد القادر³². وفي حديثه عنها، نجد موقفه من الأمير عبد القادر ينقلب رأساً على عقب مما ورد في "طرس الأخبار". فقد أشاد كثيراً به وبأعماله، ليعدل عن موقفه العدائي منه، والنص التالي يعبر بصدق عن ذلك: "ولما كانت نية الحاج عبد القادر خالصة في دينه، وملة نبيه صلى الله عليه وسلم، لم يعاقبه الله في الدنيا، فكانت معيشتة ومعيشة أهله، على يد عدوه وصديقه، وأسكنه الله الأرض المقدسة، فصار يمشي بأرض تردد فيها جبريله على كل نبي ورسول، فيألفها من مشية بين قبور الأنبياء، وأهل الصلاح والأولياء، بعد أن جرد سيفه على الأعداء، وناضلهم مناضلة الصحابة والأشداء... سل عن تردده في الميدان ييجو وأحبار الرهبان، وسل عن تردده في الصفوف أودية سيك وشعاب خروف... فسبب سنة الجهاد التي أحيها في آخر الزمان، أحيا الله ذكره، وبتقديم والده المذكور، وحاز حمد الله وشكره"³³.

5- ثورة أولاد سيدي الشيخ:³⁴

وفي حديثه عن هذه الثورة نجده يقول: "فاقتحموا المشاق والمهلك، وثاروا ثورة المجنون، وقالوا إننا لنا أجرا غير ممنون. تأمر الكبير منهم سنون وأعواما، وقتل بوالده جيوشا نصرانية وأرواما، ومات قرير العين بأخذ الثأر، وخلفه أخوه وما قال العثار، وشنَّ على عدوه الغارات، وقتل من في الحصن وداخل المغارات، إلى أن مات ساكن الفؤاد، حيث قتل في والده الرؤساء والقواد وأمرء الجيوش والأجناد، وخلفهما الأخ الثالث فأقسم بالسبع المثاني ورب المثلث، ليأخذنَّ بئار الأخوين والوالد، ويحي تلك المشاهد، وما اندرس من تلك المعاهد".

ويواصل المشرفي قائلا: "ولما رأى الفرنسييس الفتنة حول ساحته تحوم، وخيلها تخرج في تلك السحاري والتخوم، واستوطن الفتانون له كورة سجلماسة خاطب سلطان المغرب ذا الرأي والحماسة أبو علي مولانا الحسن بن مولانا أمير المؤمنين محمد ليكف عنه الفتان الذي هو في بلاده وبين رعيته يتردد".

وانتقل المشرفي بعد الحديث عن ثورتي الأمير عبد القادر وأولاد سيدي الشيخ للحديث عن الإفرنج، وبعضا من تاريخهم وأعمالهم بالجزائر، كإنشاء المدن وتوسيعها، وبناء الموانئ، وإنشاء الطرقات، واستصلاح الأراضي، وإنجازاتهم في قطاع التعليم.³⁵

6- الحديث عن العلماء والقضاة:

كما نجده في السياق ذاته، ينوّه ببعض علماء الجزائر ويقدم تراجم وافية لبعضهم، فقد ترجم لكل من الحسن بريهمات³⁶، وأحمد قدورة³⁷ وعلي

العمالي³⁸ ، ووالده أحميدة العمالي³⁹ ، وحمودة القاضي⁴⁰ ، وجملة أخرى من العلماء، خاصة منهم علماء الأسرة المشرفية، وعلماء مستغنام وتلمسان.⁴¹ ثم أفرد للقضاء فصلاً مستقلاً، وتكلم عن فضله وخطورة تقلده، حيث عدّه من أعظم الخطط الدينية الست دون الخلافة، أكمل قدرا عند الله تعالى⁴² ، حيث يقول: "فاعلم أن أعظم الخطط الست دون الخلافة القضاء، وأكملها عند الله قدرا، فإلى القاضي المرجع في الجليل والحقير، ويختص بالنظر في الجراحات والتدميات".⁴³

ويؤكد المشرفي، على ضرورة حسن اختيار أعوان القضاء وتحديد أوصافهم، وضرورة رجوع القاضي للعلماء، باستشارتهم فيما يستجدّ من النوازل، إذ يقول: "وللقاضي، أن يتفطن أيضا لأعوانه، ولا يرشح لإعوانه إلا العون الحير، بحيث يكون كالشاهد حرّا ذكرا غير مغفل، لا يخدع ولا يقدح في عدالته، لأنه ترجمان القاضي وأمين سرّه ونحيه وأمره...ومن سنة القاضي أن لا يستغني عن مشورة العلماء في كل نازلة نزلت، بل يستعين بهم في جليل الأمر وحقيقه، ومن أعرض عن مشورتهم عميت عليه إفتاء الوجه الشرعي، وانطمست آثاره".⁴⁴ كما نجده يوصي "من ابتلي بالقضاء، والحكم بين العباد، أن يكون عاقلا، عفيفا، مرضيا، يغلب خيره على شرّه، فإن الحكم مبني على ميزان الاعتدال، فمتى رجح أو مال، تلفت به نفس ومال"⁴⁵ . وقد أنهى المشرفي هذا الباب بخاتمة مطوّلة، تحدث فيها عن مدن المغرب الأوسط ومدينة أم العساكر:

7- مدينة أم العساكر: 46

ذكرها المشرفي قائلا: "ومن مدن المغرب الأوسط أم العساكر وبها سرير الملك ولا ينتقل الملك منها إلى وهران إلا إذا اشتد الحر على عساكره يذهب بها إلى ساحل البحر إلى أن يعتدل الهواء فيرجع إليها. وهي مدينة عامرة الديار، واسعة الأقطار، اشتملت على مدينة عرقوب إسماعيل وبابا علي والباب الشرقي والعين البيضاء وسيدي علي بن محمد، والكل محققون بالقصبة التي هي دار المخزن ومحل ديوانه وأحكامه. قد استدارها من جميع جهاتها ونواحيها بساتين التين وكرم العنب، وتينها أحسن التين لونا و أكبرها حجما وأنعمه شحما وأحلاه طعما، حتى يقال: " أنه ليس في الدنيا مدينة يوجد فيها هذا التين". ومنها يحمل التين والزبيب إلى سائر الأقاليم، من عدم تسويسه ويدخر لشدة السنين وتطول مدته، يجعلونه أعدالا ويسافرون به برا وبحرا ولا يتغير لونه ولا طعمه لامتزاجه في ظرفه فلا يتوصل لقسمه وقت المناولة إلا بآلة الحديد".

ويضيف المشرفي في وصف هذه المدينة قائلا: "وهواء هذه المدينة طيب لا وخم فيه، قليلة العلل كثيرة الغلل، لا تجتمع بها السفلى، تنفر الفجار وتقبل على التجار، لا تكسد السلع في أسواقها ولا تبور المنفقين في أرزاقها، للغريب عرين ولأهلها نعم المتبوء والقرين، اختطها حكيم الدولة بجبل الذهب، وبنائها للدين مأوى وحفظا لما ينتهب، يجي إليها من الراشدية كل خير، ويذب عنها أهل غريس إساءة الغير، ويكفون عنها الأيادي العادية، فلا تعدو على أحوازها عادية، واستغنوا عن الحاجة، بمزارع عواجة، وبطحاء غريس أغنت الفرنج اليوم عن

باريس، فحَصَّن أسوارها، وتحف أدوارها وأطوارها، فحَمَّر عنبها، وخندريس تينها وعنابها، لا يوجد في قطر من الأقطار، ولا يستعمل في مصر من الأمصار، توزن بالصراف، وتزلزل العقول إذا شربت حال الصراف".

8- أقاليم المغرب الأوسط:

ذكر الرحالة المشرفي أن المغرب الأوسط اشتمل على مدائن عظيمة وأقاليم جسيمة وهي:

1.8- إقليم معسكر: 47

فمن الأقاليم التي عرّف بها المشرفي هذا الإقليم ذكره قائلاً: "إقليم معسكر المذكور، فيه ثغور بحرية معدّة للأسطولات كمستغانيم ووهران، ومدائن برية كقلعة راشد ومدينة اتيلوانت ومدينة البرج التي لا يوجد عنبها إلا في النيروز، وإبان الحرث وقت فَقْدِ سائر الثمر، والحبة منه تملأ الفم ولونه داكن يميل على السواد وجله أحمر قاني".

ويضيف قائلاً بعد ذكره جبل العمور: "وجبل العمور هذا من إقليم المعسكر وسائر قرى التل والصحراء، فتاقدت التي أحيّاها الأمير عبد القادر بن محي الدين كانت لعبد القوي وقد ذكر "المغيلي" سطوته وقوة جنوده، بينها وبين المعسكر مسافة القصر أربعة برود فأكثر.

وقصور الصحراء : قصر بوعلام، والخضراء، وتاويلا، والغاسول، وابرينة، والأبيض، والشاليتين القبليّة والظهريّة، وأبو سمغون، والعين الصفراء. وينتهي إقليم المعسكر إلى فجيج الذي هو محسوب من إقليم المغرب الأقصى.

كما تكلم المشرفي عن المدن التي أحدثها الفرنسيون بهذا الإقليم قائلا 48 :
"وأحدث الإفرنج مدائن عظيمة حوالي المعسكر من سائر الجهات، فقد أحدث
بوادي سيك بالكاف المعقودة، وبوادي هبرة مدائن، وزوّل الصدر الهائل شوكة
والرتم والأثل والقطف بالقاف المعقودة، وغرس الأشجار ذات الثمار في موضع
التي لا تثمر، وردّها جزيرة خضراء حبة الإحاص فيها أو التفاح تزن الرطل أو ما
يقرب منه، وعنقود العنب من طازج ثمرته يشبع الاثنين والثلاثة إذا لم يكن فيهم
شره ونهمة".

ويضيف قائلا: "كما أحدث بوادي مينة مدائن وحضرها للتجار، تعمر
أسواقها من سائر الأقطار، وسائر البناءات على ضفة وادي شلف إلى الأصنام،
مدينة عظيمة لم تكن في زمن الإسلام، واتخذ لها جسرا عظيما يقرب من نصف
الميل، بناه أولا بالألواح، ثم بناه بعد ذلك بالحجر المنجور بناء وثيقا".

كما تكلم صاحب الرحلة عما آل إليه أمر هذه المدينة زمن الأمير عبد
القادر ثم بعد استيلاء الفرنسيين عليها، حين يقول: "وفي زمن الحاج عبد القادر
بن محي الدين جمعت أعشار قبائل بني "بوخنوس" على يد رئيسهم القائد أحمد
بن الزيتوني، وجعلتها في سرب واحد وما ناصفته. وبعد استيلاء الإفرنج أحيائها
واتخذها محكمة لقبائل البربر الذين هم في سفح جبل ونشريس ومنهم العلامة
الونشريس صاحب المعيار، ولمقابلتهم في عدوة أولاد القصير ومدائن مجاجة
وأولاد فارس وأحميس إلى ثغر أتس".

2.8- إقليم مليانة والمدية: 49

قدم لنا صاحب الرحلة معلومات مهمة عن هذا الإقليم، فنجد أنه يذكر أن: "من أقاليم المغرب الأوسط أيضا إقليم مليانة والمدية، امتد من ثغر شرشال إلى أعراب تيطري وسر يمينا من جبل بني امناصر إلى جبال أبراز وجبال أهروات في عدوة وادي شلف الأخرى إلى مدينة "طازي" التي أحيها الأمير عبد القادر بن محي الدين، إلى جبل البخار إلى جبل بوسعادة إلى قبائل أولاد مقران إلى جبال أزواوه المحتوية على ألف من القرى والمداشر".

3.8- إقليم الزاب: 50

ومن الأقاليم التي عرّف بها المشرفي وقدمنا لنا وصفا دقيقا عنها إقليم الزاب، الذي يقول عنه: "ومن أقاليم المغرب الأوسط إقليم الزاب المحتوي على مدائن وقرى، قاعدته بسكرة ومسيلة وقسمطينة، وثغوره عنابة وبجاية، وامتد هذا الإقليم إلى خط الجريد، تهيء إليه من نفطة وتوزر وسوف ثمرات النخيل، وعجوته الفائقة على تمره دقلة النور أحلى من السكر وشهد العسل، إلا أن الذي سقطت أسنانه لا يقدر على مضغها إلا إذا دقت وسفّ دقيقها يجد حلاوتها ونفعها، وينتهي هذا الإقليم يمينا إلى قرى امزاب وعين ماضي والأغواط الشرقي لجبل العمور".

خاتمة:

وعموما فإن هذه الرحلة تعتبر من الرحلات الفريدة من نوعها فيما يتعلق بتاريخ الجزائر خلال القرن التاسع عشر خاصة إذا وضعنا في الحسبان أن الوصف الذي قدّمه المشرفي عن الجزائر هو وصف لا نكاد نجد له مثيلا في الكثير من المؤلفات الجزائرية في هذه الفترة عدا التقارير الفرنسية.

ولقد اعتمد فيها صاحبها على السرد التاريخي وغاب عنها التبويب، كما أنّها تتميز على العموم بأسلوب سلس ولغة سليمة، عدا ما تخللها من ألفاظ دارجة وعامية، لكنها كانت نادرا ما تتكرر، إضافة إلى أسلوبها الذي يغلب عليه استعمال المحسنات البديعية كالسجع والجناس، وهي السمة الغالبة على مؤلفات هذه الفترة. ويلاحظ كذلك على المؤلّف براعته في الأدب، وهو ما جعل رحلته هذه ثرية بالمعلومات والاستطرادات التاريخية المهمة.

الهوامش :

1. عن تفاصيل أكثر عن هذه الشخصية راجع كتابنا: العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي ت 1895 حياته وآثاره، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط1، 2011.
2. عبد القادر بن سودة، إتحاف المطالع بوفيات القرنين الثالث والرابع، ضمن موسوعة أعلام المغرب، ج8، تنسيق وتحقيق محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص: 2805.
3. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، ط3، 1983، ص: 303.
4. ابن سودة، إتحاف المطالع، ص: 2805.
5. - Henri Pérès: l'Algérie vue par deux voyageurs musulmans en 1877-1878, R.A, N76, 1935, p: 261.
6. العربي المشرفي ، ديوان نظم في من أيقظ للدين جفن الوسن مولانا الحسن ، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم: 5310، و111ظ.
7. العربي المشرفي ، ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول ، مخطوط بالمكتبة الوطنية المغربية تحت رقم : 2956 ، الرباط ، ص: 09.
8. -Henri Pérès : op. cit. p : 261.
9. العربي المشرفي ، ديوان المشرفي ، و111ظ.
10. العربي المشرفي ، الذخيرة ، ص: 56.
11. محمد المنوني ، المصادر العربية لتاريخ المغرب ، ج 2، الفترة المعاصرة 1730 - 1930، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة الدراسات البيبلوغرافية رقم 01، 1989م، ص: 91.
12. وهو ابن عمّه، تولى قضاء الحياينة، وكان أحد العدلين اللذين ذُيلا بختمهما على وثيقة المهاجرين بفاس سنة 1313هـ/1894م، تجديدا لبيعتهم للسلطان الحسن الأول، أمام إغراءات الفرنسيين لهم بالحصول على الحماية والدخول تحت سلطة الاحتلال الفرنسي

- بالجزائر. ينظر: محمد المنوني: "وثيقة عن المهاجرين التلمسانيين بفاس"، دعوة الحق، ع2، تصدر عن وزارة الأوقاف المغربية، السنة العاشرة، ديسمبر 1966، ص ص: 104 - 106.
13. عالم محدث وقاضي. ولد بالجزائر، وبها أخذ العلم، ثم تولى القضاء وهو ابن الخامسة والعشرين (25) من العمر في مليانة، ثم في تنس وأخيرا بتلمسان. من آثاره: ربح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة. توفي مع بداية القرن العشرين ولم يَخْلَف بعده القطر الجزائري مثله في ثلوج الصدر، والهمة البعيدة في جمع الكتب ونسخها، والبذل والمعروف. وقد أجازه العربي المشرفي سنة 1878م. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، ص: 72.
14. عبد السلام بن سوادة بن عبد القادر، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، بيروت: دار الفكر، ط1، 1997م، ص: 100.
15. المصدر نفسه، ص: 100.
16. نفسه، ص: 100.
17. أبو القاسم سعد الله، "مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر"، الثقافة، تصدر عن وزارة الثقافة الجزائرية، عدد 75، سنة 13، 1983م، ص: 81.
18. محمد المنوني، المصدر السابق، ج2، ص: 91.
19. المصدر نفسه، ص: 91.
20. العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 03.
21. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص: 404.
22. العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 04.
23. المصدر نفسه، ص: 06.
24. نفسه، ص: 07.
25. نفسه، ص ص: 04 - 09.

26. نفسه، ص: 09.
27. نفسه، ص: 11.
28. نفسه، ص: 12.
29. **عبد الرحمن الثعالبي**: هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد، الشهير بالثعالبي، مفسر، محدث، فقيه، وصوفي من كبار علماء الجزائر. ولد عام 786هـ شرقي مدينة الجزائر، وسافر إلى بجاية وتونس والقاهرة طلباً للعلم. ولي قضاء الجزائر ثم عزل نفسه. من آثاره: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، والعلوم الفاخرة في أحوال الآخرة. توفي سنة 875هـ بالجزائر. ينظر: السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: منشورات مكتبة دار الحياة، مج2، ج4، ص: 152.
30. **أحمد بن عبد الله**: الزواوي الملووي المغربي المالكي، نزيل الجزائر، فقيه متكلم صوفي، صاحب القصيدة المشهورة في التوحيد الموسومة بالمنظومة الجزائرية، التي كان الشيخ السنوسي أحد شراحها. اشتهر بزوايته التي صارت مدفناً لجملة من علماء الجزائر. توفي سنة 884هـ. ينظر: السخاوي، المصدر السابق، مج1، ج1، ص: 374.
31. العربي المشرفي، الذخيرة، ص ص: 19 – 21.
32. المصدر نفسه، ص ص: 39 – 45.
33. نفسه، ص: 20.
34. نفسه، ص ص: 46 – 48.
35. نفسه، ص ص: 24 – 27.
36. **الحسن بريهمات**: فقيه عالم مشارك، برع في العلوم الدينية واللغة العربية. ولد حوالي عام 1821م. ويعدّ من أوائل الجزائريين الذين دخلوا المدرسة العربية الفرنسية المنشأة سنة 1836م. تولى قضاء البلدية عام 1853، وإدارة مدرسة الجزائر الشرعية سنة 1855م، ثم عين عضواً في المجلس الفقهي. توفي سنة 1833م. ينظر: الحفناوي أبو القاسم محمد بن

- إبراهيم، تعريف الخلف برجال السلف، تحقيق وتقديم محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، بيروت: مؤسسة الرسالة، تونس: المكتبة العتيقة، ط1، 1982م، ج2، ص: 120.
37. أحمد قدورة: من علماء الجزائر وفقهائها، تولى الإفتاء بعد وفاة أخيه محمد سنة 1107هـ. وقد توفي مقتولا عام 1118هـ/ 1706م بأمر من الباي محمد بكداش. ويبدو أنه لم يكن في درجة أبيه سعيد ولا أخيه محمد العلمية، ولعله كان كبير السن عند وفاته. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 356.
38. علي العمالي: بن أحمد بن محمد أبو الحسن، فقيه مشارك من كبار علماء الجزائر في العهد الاستعماري قرأ على والده أحميدة العمالي. ولد سنة 1848م، وتوفي عام 1906م، حيث كانت جنازته مهيبة حضرها أهل العلم ورجال الفضل وأعيان الجزائر. ينظر: الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص: 546 - 548.
39. أحميدة العمالي: فقيه محدث، ولد سنة 1812م، تولى إفتاء مدينة الجزائر سنة 1856م. توفي عام 1873م، ودفن بروضة الإمام الثعالبي. من آثاره رسالة في أحكام المياه، رسالة في ترتيب القضاء. ينظر: الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص: 154.
40. حمودة القاضي: الفقيه الوجيه، العلامة النبيه، السيد حمودة القاضي، عالم بفروع المذهب المالكي، ومداركة. قدّمه الولاة من بين العلماء لأهليته بصناعة القضاء، وسياسته الدينية والدنيوية، وذكائه وفطنته. ينظر: العربي المشرفي، الذخيرة، ص: 33.
41. المصدر نفسه، ص: 23-34 و ص: 38-49.
42. نفسه، ص: 33-36.
43. نفسه، ص: 29.
44. نفسه، ص: 32-33.
45. نفسه، ص: 34.
46. نفسه، ص: 25.
47. نفسه، ص: 25.

48. نفسه، ص: 25.

49. نفسه، ص: 25.

50. نفسه، ص: 25.